د. محمد المنسي قنديل

خمس قصص قصيرة ... واغنية لابي

— ١ —

قال الرجل الذي بجواري : آلام المعدة لا تطاق . اود البكاء لكنني اشعر بالخجل .

تجمعت نقاط العرق على جبينه الشاحب . هززت راسي آسفا وابتعدت عنه . رغم الزحام استطعت الوقوف بجانب فتاة جميلة . وعندما كان الترام يندفع للامام كان جسدانا يتلاصقان برهة . لمست ذراعي ذراعها . كانت باردة كأنها ريح البحر .. تقابل وجهانا ، قلت لها فجأة ..

— انني وحيد تماما .. وفي حاجة ماسة الى فتاة .

لم يبد عليها دهشة كبيرة . ظلت واقفة بجانبي حتى جاء الكمساري . قطعت تذكرتين لي ولها . ابتعدت الى الجانب الاخر ، وهي تهز كتفيها . كان الترام يهتز ايضا . وصوت اصطكاك الصنج مثل استغاثة طفل صغير . خلا احد المقاعد . دفعت الرجل الغريب دفعة خفيفة واحتللت المقعد ، سمعته وهو يدمدم في غيظ مكتوم . ونظرت من النافذة فاجأتني المدينة الغريبة كأنما تترصف . حتى انني تساءلت بمرارة : « لماذا جئت الى هنا .. لماذا ركبت هذا الترام ؟ »

اعلن بائع كثيف اللحية يرتدي عقالا فوق رأسه انه يهب الجميع آية الكرسي وعدية ياسين . تحدث عن مزاياهما الربانية العجيبة . ثم هتف موضحا انه لا يبيعهما لان كلام الله لا يقدر بثمن ، لكنه يطلب هبة بسيطة لقاءهما .

دار الترام نصف دورة حتى حسبته سوف يخرج من فوق « الشريط » .. ودخل شارعا اكثر ضيقا . هبطت الفتاة الجميلة . هبط الرجل . سار وهو يترنح حتى وصل الى الرصيف . جلس عليه ثم اجهش في البكاء .

ظل الترام يخوض طريقه بصعوبة خلال الشارع الضيق والجدران تكاد تطبق على مقدمته . كان البائعون يحملون قدورا ضخمة . ينثرون « حمص الشام » بعرض الشارع . تنفرط العقود الصفراء ما بين شقوق الاحجار وزوايا « الشريط » . نهض الرجلان ، الذي امامي ، والذي خلفي ، وهبطا .. ولم يصعد أحد ..

الجدران تحمل نقوشا مملوكية قديمة . تهمي علينا رائحة ثقيلة .. خليط من العفونة والغبار .. شقوق غائرة تمتد . عبر البيوت والخانات والوكالات . من خلال ظلمتها تلمع عيون الفئران وهي تتقافز في عصبية . المشربيات القديمة محطمة . مائلة على وشك الانهيار مثل وجه مجدور تتصاعد من فتحاتها اعمدة الغبار الرفيعة . مآذن مكسورة تعشش عليها طيور سوداء عندما يفزعها صوت الترام تحلق وهي تطلق صيحات غريبة . نباتات متسلقة تصعد فوق واجهة المساجد والبواكي كانما تتمنى امنية مستحيلة . وظلمة الشارع تزداد . ويهبط كل الركاب . ولا يبقى سواي . لا يبقى سوى الكمساري العجوز والسائق العجوز . اقتربا من بعضهما . اخذا يتحدثان وهما ينظران الي نظرات خفية ويضحكان في صوت خشن كأنما يعرفان كل شيء يعرفان مقدار وحدتي . وانه ليس ثمة محطة اهبط اليها ..

— ٢ —

كنا — أنا وهي والعصافير — لا نأكل الا قليلا حتى نشبع ..

كانت الريح ، اذ تهب ، تبعثر خصلات شعرها مثل شبكة صياد فقير . وتبعث داخلي شعورا بالحسرة .. وتحرك اجنحة العصافير فتطير مبتعدة حتى تغيب عن

ابصارنا .. كانت تقول لي .. الاحلام الكثيرة تورث الضجر ..

كان الشتاء يأتي فتختبىء هي خلف الفراء الثمين . واسير أنا وحيدا في الطرقات الخالية . احس بمذاق الرذاذ المالح . واحلم بالامطار الصافية الزرقة . فلا أجد الا العصافير التي ماتت من الصقيع مسجاة على الارصفة.

قالت .. لن أكون لك . كف عن ان تحلم بي دائما..

كنت ـ في اللحظات القليلة التي انام فيها ـ احلم . ارى العصافير الميتة وقد نفضت ريشها واخذت تصرخ بصوت عال كأنها تستغيث .ارى منتصف الارض ينشق عن شمس كبيرة زاهية مثل التي يرسمها الاطفال بالالوان المائية .. وتهبط امطار صافية الزرقة لها مذاق السكر النبات .. ويمرق قطار خلال نفق ارضي يعبر الحدود بلا عوائق .

وحين استيقظ سريعا من النوم ، ارى الشبورة الصباحية مثل بودرة منثورة وقطرات الظل ترسم فوق الزجاج المفبش خطوطا متعرجة قبل ان تنحدر الى أسفل . وتذوب .

ـ ٣ ـ

منذ اللحظة التي تحولت فيها الى حصان ، وانا احلم بقطعة من السكر .. حتى ان هذا الحلم شغلني عن رغبتي الملحة في العودة الى هيئتي الادمية ..

لم أكن اكف عن التجوال . في مواسم الخضرة يضع صاحبي امامي كومة من البرسيم الاخضر .وفي مواسم الجفاف ، يضع جوالا من التبن الاصفر . وعندما كنت ابدأ الاكل اتخيل اسناني وهي تجرش قطعة السكر فتنبعث رعدة في اعماقي ولا استطيع الاكل . ظل حزام « العرض » يحك فقرات ظهري حتى صنع جرحا مستطيلا. لم أكن اراه . كنت احس بالذباب وهو يحط عليه ويلغ في دمي.طوال النهار يلسعني صاحبي بالسوط . ويحثني على الاسراع دون داع . وفي المساء يجلس امامي ويبكي.

يأتيني النوم وانا واقف . وجميع قوائمي متصلبة ولا تأتيني الاحلام ..وعندما ارقد على الارض واثني قوائمي تحتي ، لا أنام . عندما احاول ان اتذكر اي وضع كنت انام فيه اثناء هيئتي الاولى .. لا اتذكر ..

لا أكف عن التجوال .في الصباح تتسع شوارع المدينة . وتصبغ الشمس ظلي فأراه منحنيا . تضيق الشوارع . تصبح حارة سوداء مظلمة . واسطبل مزدحم بالروث ورائحة البول . وعندما يراني الذباب الازرق ذو الاجنحة المدببة يرتفع من فوق كريات الروث ويحط على جرحي . ارى صاحبي واولاده المرضى ، وزوجته المريضة جالسين في احد الاركان ، حول مصباح غازي ، يتخاطفون الارغفة ويتبادلون كلمات السباب . فأغفو قليلا واحلم بقطعة من السكر .

ـ ٤ ـ

قالت .. انها قضت معظم المدة الماضية في الاسكندرية . وان هذا هو سبب سمرتها .. سألتها .. هل استمتعت بوقتك ؟. قالت بحيادية وهي تمط شفتيها : يعني !! ..

كانت السمرة المشربة بالحمرة تكسبها فتنة من نوع خاص . تأملت يديها الموضوعتين فوق المنضدة . واصابعها تتداخل وتفترق . لمحت في الاصبع الكبرى خطا ابيض. منطقة لم تمسها الشمس ولم تكتسب السمرة.

قلت.. عندما تنعكس الشمس على شعرك ..يصبح لونه أزرق .. يصبح غريبا ..

قالت .. السجن جعلك اكثر شاعرية ..

هكذا تموت الموجات ويسفر الماء عن ارتعاشات فاترة . النافورة التي في وسط النهر معطلة . والصبي يبيع عقودا من الفل ويبالغ في الالحاح والجرسون يحمل ابتسامة ثقيلة ويضع فوق المنضدة فواتير باهظة .

قالت .. هل تنوي العودة مرة اخرى ..

لم اعرف ان كانت تسخر ام لا .. قلت .. هل انت خائفة ؟..

مطت شفتيها مرة اخرى ..

كنت قد اهديتها دبلة من الفضة الخالصة . كانت تضعها في يدها اليمنى وتقول انها تعوقها احيانا عن الكتابة . لكنها لم تخلعها الان .. يدها اليمنى خالية . يدها اليسرى خالية لكن فيها هذا الخط الابيض الغريب .. كنت امسك اصابعها واظل اعد عليها .احبك. احبك . فتقول وهي تبتسم : عشرة فقط ؟ اردد وأنا اضحك : ماذا افعل ليس لك الا عشرة اصابع ؟..

تساءلت :

ـ هل كانت المدة طويلة ؟.

قلت : ـ انت تعرفين هذا خيرا مني.. في الداخل الايام كلها متشابهة .

كيف الحال في العمل ؟..

ـ متعب قليلا . لكنه طيب على اي حال ..

امسكت اطراف اصابعها . كانت باردة واحسست رعدتها الخفيفة . لعلها كانت تفكر . هل تتركها في يدي ام تسحبها ؟ تركتها مترددة . تحسست بأصبعي اثر الخط الابيض .. كان ناعما مثله مثل باقي الجلد . في

نفس الاستواء ونفس درجة الحرارة .. لا شيء .. غير انه ابيض وبقية جسدها تغطيه سمرة مشربة بالحمرة ..

سحبت يدها وتناولت كوب الماء .. رشفت رشفة صغيرة . وضعت الكوب وابقت يدها بعيدة عن متناول يدي . وقالت وهي تتظاهر بالاهتمام البالغ :

ـ هل آذوك ؟..

قلت : ـ ليس كثيرا .. يكفي ان احكي يوما واحدا لتتشابه بقية الايام ..ولكن انت .. ماذا فعلت في الخارج ؟.

مطت شفتيها .. يعني !! ..

قلت مباشرة : ـ هل آذوك ؟..

قالت في حدة : ـ من تعني ؟..

كنت اود ان اقول لها « هل تحبينني ؟ اسألها : أين خاتمي .. استحلفها اما زلت تؤمنين انني افعل الصواب؟» نظرت في الساعة الصغيرة في يدها :

ـ سوف اتأخر ..

فكرت .. ياه لهذه الدرجة .. قلت لها .. سوف اوصلك .. قالت ..

سوف يرانا الجميع . انت ولا شك مراقب ..

نهضت وتناولت حقيبتها . رأيت الخط الابيض وادركت انه حقيقة .

مثل النهر الميت . والشمس البعيدة والفل الذابل. مثل السرير الواطيء الخشن . والجردل الذي يفرح بالنجاسة . والنافذة الصغيرة التي تبين جزءا من السماء ولا تهب خلاصا .. مثل صوت المزلاج في منتصف الليل والفواتير الباهظة . ومحاضر التحقيق الطويلة وابتسامات الشماتة واعتذارات الخوف .. قلت :

ـ فقط .. سوف اوصلك بالتاكسي ..

سرنا معا . وقفنا امام الكازينو واخذت اشير الى كل سيارة عابرة . تمهل احد التاكسيات وسألنا السائق عن وجهتنا اولا . وركبت هي . وضعت اطراف اصابعها في يدي .. قالت : سوف اتصل بك .. قلت لها فجأة :

ـ هل تزوجت ؟..

اغلقت الباب . رفعت اصابعها وبدت كأنها على وشك الصراخ . لم تفعل . قالت كلمة او كلمتين . لم اسمعهما لان التاكسي كان يزوم .. ومضت ..

ـ ٥ ـ

كانت جدتي قبل ان تموت تنوي تربية الكتاكيت . حتى ان جدي تركها من اجل هذه الهواية وتزوج باربع نساء اخريات . لكنها ظلت وحيدة مثل صبارة عجوز . تجلس في الشمس تنشر الكتاكيت وتنثر حبات الذرة المدشوشة والصواء يتعالى مثل نحيب النسوة الخافت . وهي ترقبها كأنها على ميعاد حتى تأتي « العرسة » تسمع جدتي دبيب اقدامها وترى بريق عينيها كأنها عيون الذئاب . يتقوس جسداهما معا . جسد جدتي اليابس الواهن العضلات ، وجسد « العرسة » الفضروفي الليين ، حتى انهما يصرخان في وقت واحد . والكتاكيت في المنتصف ترعى في بلاهة . كانت جدتي تقدم قربانا لقوى لا تعرفها . لعل جدي اكتشف ذلك وهرب ..

وفي ليالي البرد الموحشة كانت تصرخ كأنما تناديها. تستيقظ جدتي وتظل تنتفض حتى الصباح وعندماجاء الموت الرقيق البالغ العذوبة . بدت جدتي هادئة وديعة كأنها كتكوت مستنزف الدماء. وجاءت «العرسة» ونامت جنب قدميها في صمت حتى جاء المساء .

ـ ٦ ـ

« ابوك يهرف كثيرا .. » ..

تقول امي ذلك في ساعات الضنك . لكنها لا تتمالك ابتسامتها عندما تراه وقد انخرط في الغناء على دقات النول بصوته الخشن .. « آه يانطاسي . خاب الترياق .. ومت بسم الزمان »

عالم القاعة الرطبة موحش . وكان هو يمتص هذه الوحشة ، بلونها بالاحلام الغريبة . لم يكن يملك شيئا .. لكنه حين يفرد ذراعيه وتبدو يداه الكبيرتان الغليظتان ابعد ما تكونان عن جسده .تحملان في تجعيدهما شذرات الايام والشهور والسنوات،وفي خشونتهما ميراث العمل الدائب . وعشرات المهن التي تقلب فيها . كأنما يستطيع ان يحمل هذه البلدة الصغيرة ـ التي شهدت ايامه الاخيرة ـ في كف واحدة . يضعها جنب القرى والبلاد التي جابها عبرالبراري وبرك الصيادين وانهار الملح واشجار الدوم ورائحة الروث والتمر حنة . ما بين حافة النهر وحد الصحراء . جوعا وعشقا وغربة . وعندما يدخل القاعة حيث ينصت نوله الوحيد وسط بقايا الانوال المتكسرة . واثار « الصنايعية » الذين هجروا الكار . ويدق الدف بشدة فتجاوبه كل الدفوف . يحلم ابي بالصنايعية القدامى وهم يرقعون ايديهم مرحبين .. كنا في انتظار دقتك ياعم منسي .

هكذا يحدثونه .. فيحدثهم ابي .. يا اخوان. اليوم الذي يضيع يكلفنا الكثير . لكنه لا يضيع هباء . هكذا يواصل ابي الحديث . كنت صغيرا حين تركت البيت .. كان بيتا بسيطا تغطي واجهته اشجار الجهنمية الحمراء

وامامه بئر يسكنهـا عفريت صغير . لكن العالم كـان براحا وكنت كالمهر الشارد . وعندمـا عدت وجدت ابـي قد مات ، والبئر قد ردمت . وادركت من يومهـا انه لـن يكـون لي بيت. كنت اعمل وانام مكان عملي . هكـذا يتحدث ابي .. وانا جالس امامه في احد اركان القاعـة اترقب حركات يده وهي ترمي المكوك لتلقفه يده الاخرى. وتتواصل الدورة . لكن المكوك كان يخونه فيفلت ويقع في المنتصف . اسـارع بمناولته اياه ثم اجلس صامتا حتى لا اقطع سيل الحلم المتدفق .

ثم ذهبت للجيش .. قادونـا الى اقصى الشمـال وقالوا ان الاتراك والالمان سوف يهاجمون مصر . وكـان الضابط يحبني ، فقال انهم يخدعوننا وانـهم اخـذوا السلطان اسيرا . وهربت اثناء الليل حتى قابلت امرأة الفجر .. وظللنـا ننام بين الزرع الشيطاني ثلاثة ايـام متواصلة . كنت اضع رأسي فوق صرتهـا واتطلع للسماء فارى القمر مثل كرة من نار . ثم تركتني لتلحق باهلهـا وعاودت السير حتى نسيني الجيش ..

يتحدث ابي وانا اهمهم مبهورا . ارى الخيوط وهي تتعانق ، والاقمشة البهية الالوان تتخلق ويحلم ابي ان كل رفاقه القدامى يتوافدون على القاعـة حتى الذين ماتـوا وهم منكفئون على النول . فيهتف مرحبا .. يا رجالـة كنت اصغر الصنايعية ، وكنت امهرهم . جاءني حاكـم البلدة التي اعمل فيها كان تركيا ابيض الوجه . قال لـي هذه لفات الحرير ، انسج لي منها ثوبا يليق بمقامي ،وكان الحرير غريبا يا رجال ، ليس له لون محدد لكنه يشع ضوءا كالجوع الدائم والرغبة الدائمة . منذ ان بدأت العمل فيه والقاعـة تتوهج بالاضواء الغريبة ، وعندمـا يزول النهار ويأتي الليـل ، تظل الشمس معلقة فوق قمة نولي . كـان هنـاك اللون الاصفر الشبيه بالاسى والندم . والاحمـر الدافىء كأنه طرف لسان المرأة الفجرية والاخضر مثـل الزرع الشيطاني الذي دهسه جسدانا . والازرق كأنه بحر الله الواسع وكأني لا اكف عن العوم . وكلما نسجت ذراعا اوشكت على البكاء .. حتى انني فكرت ان احمل نولـي واهرب بعيدا حيث اختبىء واظل انسج في هذا الثوب ما بقي لي من عمر . لكن الثوب لم يكد ينقضي حتى جاء التركي وحراسه وانتزعوني عنوة ، ولم يعطوني حتى عرق يدي، لكنهم تركوا داخلي عشرات النجوم الصغيرة الملونة . هكذا يتحدث ابي .. لقد صنعنا الكثير وسوف يتذكرنا الجميع بالخيـر .

القاهرة

فتحي فرغلي

العصار

صورة جدي تملأ الجدار
تقول جدتـي ،
ـ وهي تزيح عن اطارها الغبار ـ
اتجيل طرفها في وجهي الصامت : ـ
جدك كـان سيدا ،
دانت له قريش والبطاح
عنت له وجوه سادة العرب
وانت لا تشبهه ،
(ثم ارتمت فاستعبرت ، ونهنهت بالدمع)
وانت لا تشبهه في وجهك الباهت .

* * *

في صورة اخرى
(رأيتها في ليلة سرا)
كان بلا سلاح ،
مغبّرا تنوشه الرمـاح
مضعضعا بين يدي كسرى
تقول زوجي لي ـ وهي تدير خصرها المباح ـ
بأنني اشبهه في هذه الصورة

* * *

وخلف باب حجرتي الموصد
لبست ثوب جدتي الاسود
بكيت فيه جدي المهـان

القاهرة